عام الجراد

الحرب العظمى ومحو الماضي العثماني من فلسطين

مراجعة: سلافة حجاوي*

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ رام الله: مؤسسة الدراسات المقدسية، ٢٠٠٨. ٣٦٨ صفحة.

«عام الجراد» كتاب يتضمن مذكرات شاب مقدسي يدعى إحسان الترجمان، كتبها خلال سنتَي ١٩١٥ و١٩١٦، إضافة إلى مقدمة مطولة لمحرر الكتاب سليم تماري، تشتمل على معلومات عن كاتب المذكرات وعائلته، وخلفية تاريخية عن وضع فلسطين التي كانت في ذلك الحين مسرحاً من مسارح الحرب العالمية الأولى ومقراً لقيادة الجيش العثماني.

أمّا عنوان الكتاب، «عام الجراد»، فيبدو أن المحرر اختاره وصفاً فعلياً وتعبيراً رمزياً عن حالة فلسطين في تلك الفترة المصيرية من تاريخها. ففي سنة ١٩١٥، غزا الجراد فلسطين، فقضى على ما بقي في البلد من مزروعات كانت قد تدهورت أصلاً بفعل النفير العسكري العام الذي أجبر الفلاحين الفلسطينيين على ترك أعمالهم وأراضيهم، والالتحاق كجنود في الجيش العثماني بعد دخول الدولة العثمانية الحرب في سنة ١٩١٤. كما كان البلد في الوقت ذاته نهباً لأنواع أخرى من الجراد، كالأوبئة المختلفة مثل الكوليرا والجدري والتيفوس، بالإضافة إلى ويلات الحرب، وما جرى من تدفق الضباط الأتراك على البلد، والذين أخذوا يعيثون فيه فساداً، بحيث انتشر الفقر والمجاعة والتسول واليأس والانحلال الخلقي. وقد يكون صحيحاً اعتبار تلك الفترة العصيبة من تاريخ فلسطين والعالم، أنها بداية هجوم الجراد الذي ما لبث أن التهم فلسطين العربية وشرد شعبها. ويبلغ حجم الكتاب ٣٦٨ صفحة، منها نحو ٢٥٤ صفحة تضم المذكرات التي تغطي ١٠٨ أيام من مجموع أيام فترة ممتدة بين ١٩١٥/٣/٢٨ و١٩١٦/٨/١٨، إذ لم يكن كاتب المذكرات منتظماً في الكتابة، كما أنه توقف فجأة عن كتابة مذكراته لأسباب سنعرفها لاحقاً.

ينتمي إحسان إلى عائلة مقدسية عُرفت رسمياً باسم آل الصالح، غير أنها اشتُهرت بلقب الترجمان بسبب تخصص العديد من أبنائها بالترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية أو العكس. وقد درس المؤلف في المدرسة الدستورية التي كان المفكر الفلسطيني، خليل السكاكيني، أسسها في سنة ١٩٠٩، وتثقف بالثقافة الليبرالية المستنيرة التي حرص هذا الأخير على نشرها، كما ربطته بالسكاكيني علاقة مميزة حيث كان (إحسان) يحرص على زيارة أستاذه وحضور مجلسه الذي كان يؤمه العديد من المثقفين والساسة الفلسطينيين، فيستمع إلى معلمه وهو يقرأ مقاطع من مذكراته

* سلافة حجاوي: كاتبة فلسطينية.

الخاصة، ويتعرف إلى مختلف الآراء والمواقف السياسية. ويبدو أنه، وتأثراً منه بأستاذه، قرر تقليده في كتابة مذكراته، وذلك على الرغم من صغر سنه ورهافة تجربته، حيث كان في الثانية والعشرين حين بدأ الكتابة، وكان في حينها قد أصبح، بفعل النفير العسكري العام، جندياً «نفراً».

على الرغم من صغر سن إحسان وتجربته، فإن المذكرات التي كتبها، وعلى صغر حجمها، غنية بكثير من المعلومات المهمة والشائقة في ذلك الحين، عن فلسطين عامة والقدس خاصة، سواء في ذلك ما يتعلق ببداية دخول معالم الحداثة المادية، أو الحداثة الفكرية والأوضاع الاجتماعية. وفي هذه المذكرات يطلعنا الكاتب أيضاً على آرائه ومواقفه من كثير من القضايا الاجتماعية والسياسية في تلك المرحلة المصيرية من تاريخ البلد، ولا سيما مسألة العلاقة بين العرب والدولة العثمانية، والمستقبل الغامض الذي ينتظر فلسطين. فهو، كما نعرفه مما كتب، شاب مسلم وعربي، يكره الدولة العثمانية ويحتقرها، ليس بسبب سلوك ضباطها وما يشيعونه من ظلم وفساد في البلد فحسب، بل لأنها أيضاً لا تعامل العرب «كشركاء» في الدولة. وهو يعبر عن ذلك بوضوح حين يعلم باحتمال إرساله إلى الجبهة، فيقول: «أنا لا أريد أن أذهب. ولماذا أذهب، هل لأنهم يعدونني ويعدون إخواني العرب شركاءهم في الملك؟ أم هل لأنهم سعوا في الماضي ويسعون في الحاضر لترقية الأمة العربية؟... لو كانت الدولة دولة راقية وعاملتنا معاملة حسنة، فأنا ومالي وحياتي وكل شيء فداء للوطن... أنا لست عثمانياً إلاّ بالاسم.»

ويريد إحسان أن يتم نهوض العرب وارتقاؤهم، فهو يفكر دائماً بالفقراء والبسطاء من الناس المحرومين، كما يريد تطور العرب ونهوضهم، ويأسف بصورة خاصة على أحوال المرأة المسلمة، ويتساءل كيف يمكن لأمة أن تنهض ونصفها جاهل على النحو الذي عليه المرأة، ويتمنى أن يتم فتح مدرسة للإناث، ويعتبر الحجاب سبب تخلفها، ويقول: «ترضى نساؤنا بالقليل من مأكل ومشرب وترضى بالذل والإهانة وتصبر عليها حتى اعتادت على ذلك وحتى صارت تعتقد بأن معاملة الرجال لهن مثل هذه المعاملة واجبة لأنهن يعتقدن بأنهن ناقصات عقلٍ ودين..» وهو يحب فتاة من جيرانه على الرغم من أنه لم ير وجهها مذ كانا في مرحلة الطفولة، إلاّ مرة واحدة لثانية أو ثانيتين، حين رآها رافعة الحجاب عن وجهها أمام باب دارها. ويبدو واضحاً أن هذه التوجهات الثقافية والسياسية التي يعبر عنها إحسان في مذكراته، إنما هي بتأثير المدرسة الدستورية ذات التوجهات العربية والليبرالية، والتي أخذت تنتشر بين بعض الشباب المثقفين في ذلك الحين، بينما نعرف أن الفلسطينيين، في أغلبيتهم، وخصوصاً على المستوى الجماهيري، لم يكونوا ليقبلوا بمثل هذه الأفكار التي كانت تخالف التقاليد المتوارثة.

لكن إحسان، وكما يبدو في مذكراته، ليس بالناشط السياسي. فهو يفضل العزلة، وأمنياته تتلخص في أن تنتهي الحرب، فيسافر إلى أوروبا لمواصلة دراسته والتخصص بالزراعة كي يعود ويشتري قطعة أرض ويزرعها، ثم يتزوج حبيبته، فينجب منها الأطفال، ويعيش كلهم في وئام.

وهو قلما يتحدث عن فلسطين بذاتها، لكنه يذكر أحياناً ما يدور من أحاديث عنها وعن الحرب في مجلس السكاكيني، فيقول في إحدى اليوميات: «وقد كانت كل أفكارنا من هذه الجهة متفقة. حياة هذه الدولة قصيرة لا شك. وسيفضي أمرها إلى الانحلال إمّا عاجلاً أو آجلاً لأن تقسيمها أصبح ظاهراً كالشمس، ولكن ماذا سيكون نصيب فلسطين يا ترى؟ الجواب هيّن على هذا السؤال، إمّا الاستقلال وإمّا الالتحاق بمصر. والأمر الأخير أقرب إلينا من الاستقلال لأسباب كونها أنه لا تقدم

دولة غير الإنكليز [إنكلترا] على أخذ هذه البلاد، وإنكلترا لا تقدم على إعطاء فلسطين استقلالاً تاماً وجعلها حكومة مستقلة بل إن ما ستعمله هو ضمها إلى مصر وجعلها حكومة واحدة.» وهو لا يتوقف كثيراً عند هذه النقطة ولا يعلق عليها، وذلك على الرغم مما نعرفه من أن تيارين رئيسيين ظهرا في ذلك الحين في فلسطين، أحدهما يدعو إلى التمسك بالدولة العثمانية ومعاداة بريطانيا وفرنسا وروسيا، وهو تيار يتمنى انتصار المعسكر الذي فيه الدولة العثمانية واستمرار حكمها، والثاني يرغب في هزيمة الدولة العثمانية، وفي انضمام فلسطين إلى سورية. كما أنه لا يذكر الصهيونية إلاّ في مناسبة واحدة، فينقل حديثاً دار بين أصدقاء له بينما كانوا يتمشون في منطقة باب الخليل ثم طريق يافا، فيقول: «ولم أنطق أنا ببنت شفة.. تكلموا عن الصهيونية. لم يكن لكلامهم طلاوة ولا معنى وبدون تفكّر. وإذا تكلم علي، لا يكون كلامه إلاّ رياء... لأن جميع أمثاله كلهم بجانب الصهيونية. قال [علي] بأن الصهيونيين، إذا كانت لهم أشغال في الحكومة، فيذهبون مع نسائهم إذا كن جميلات، أو يأخذون واحدة جميلة وبهذه الصورة يقضي اليهودي شغله. وقد قال بأنه هو أيضاً إذا أتته سيدة مع زوجها أو أبيها أو أخيها فإنه يسهل شغلها قبل غيرها. هذا كلام يطعن الصهيونيين!! أنا في هذا النهار يائس.. ولكن أرجو الله بأن لا يطول يأسي.» هكذا يعبر إحسان عن بغضه للصهيونية ويوحي للقارئ بأنه يدرك أهداف الصهيونية، لكنه لا يقول أكثر من ذلك. ويبدو أن التفكير في الصهيونية ومخاطرها تراجع بصورة عامة لدى المثقفين الفلسطينيين بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وخصوصاً أننا نعرف أن كثيرين من اليهود أخذوا يغادرون فلسطين في ذلك الحين بسبب الأوضاع المعيشية القاسية والأمراض المنتشرة فيها.

في أواخر سنة ١٩١٦، توقف إحسان عن كتابة مذكراته. وكان تحدث في يوميات الأيام الأخيرة، عن قلق شديد ينتابه، وأنه ما عاد قادراً على الثبات في أي عمل يقوم به، فهو مثلاً، إذا بدأ قراءة كتاب، سرعان ما يتوقف، وهكذا بالنسبة إلى أي عمل آخر، كما أنه متضايق، وغير قادر على التركيز. بالإضافة إلى ذلك، يقول في اليومية ما قبل الأخيرة من مذكراته، إن ضابطاً ألبانياً يغازله ويتحرش به جنسياً، ويهدده بالقتل إذا لم يستجب له، وهو يفكر في الانتحار هرباً من تلك الورطة. ولا نعرف ما الذي حدث لهذا الشاب المسكين الذي توقف عن كتابة مذكراته في ١٩/٨/١٩١٦. وقد يتبادر إلى الذهن أنه انتحر، غير أننا نعلم من محرر الكتاب أن إحسان الترجمان «قُتل على يد ضابط عثماني قبيل انسحاب الجيش العثماني من القدس... في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧.»

وهكذا تنتهي حياة شاب فلسطيني مقدسي مجهول، وجد الشجاعة لأن يكتب مذكراته، وأن يعبر فيها عن ثقافة مستنيرة أراد من خلالها أن يتم ارتقاء العرب والمسلمين على نحو يستطيعون فيه، بالرقي والتقدم، مجابهة التحديات التي تنتظرهم، وفي مقدمتها الصهيونية. لقد ترك لنا إحسان الترجمان، ذلك الشاب المجهول، ومضة من الومضات المعبرة التي كان يمكن أن تلقي ضوءاً أكبر على ماضينا المأسوي، لو لم تعاجله عبثية الحياة بضربتها القاضية، فكأن موته كان رمزاً لموت واندثار تلك الثقافة البناءة التي حلم بها.